استمـرار وجـوده هنـاك عبـر فرضـه بالقوة أو بملامح القوة حين أخفقت «التضبيطات» السيـاسية التي لجأ إليها. ويتذكر أهل قرية حناويه قرب صور (على سبيل المثال) والتي اقتحمتها «القوات المشتركة» ليلاً وخطفت وقتلت بعض أبنائها بعد تطويقها وقصفها، كيف ترجم البعض في حركة المقاومة إصرارهم على البقاء إلى ممارسة عسكرية فعلية. كما يتذكر الفدائيون الذين تحولوا إلى شرطة في قرى الجنوب اللبناني مرارة ذلك التحول.

الوسيلة العسكرية إلى أين؟

نقف اليـوم أمـام اسئلة كثيرة، لها أجوبة محدودة، كلها صعبة. ماذا نريد؟ وهل أن الوسيلة العسكـرية لتحقيق الغايات هي الوحيدة الصالحة أو حتى الأهم؟ وإذا كان الرد بالايجـاب، فمـا هو شكلها وما هي معاييرها السياسية والأخلاقية؟ هل يوجد معيار أيضاً لقياس الفعالية بمعيار المردود الفعلي الذي يبدأ الشعب الفلسطيني باكتسابه وملامسته بعد سنوات من العطاء؟ فنرى اننا فقدنا الأهداف، العامة والمرحلية، فلم يعُد بإمكان وسائلنا أن تلائم غاياتنا الغائبة، ولم تعُد لدينا الامكانية لتقييم تلك الوسائل وتطويرها أو تغييرها. بل صرنا نفعل لمجرد أن الفعل مهم، دون معرفة ماذا سنجني وماذا سيخدم، نهاية، ذلك الفعل. وصار الواحد منا جالساً في مكتبه أو مسترخياً في قاعدته، لا يهتم بحفر خندق فردي مع أنه يعلم أن الطيران الاسرائيلي عائد لاصطياده اليوم، كما في الغد، وكما كان في الامس. لكن مع فقدان الاهداف فقدنا الدافع. وبات يتساءل شعبنا في أماكن تشتته: ماذا استفدنا وماذا اكتسبنا بفضل دماء الآلاف من آبائنا وامهاتنا واطفالنا؟ فلم يبخل شعبنا بدمه في يوم من الأيام، وكان يدرك أن تأييد العمل العسكري الفلسطيني سيدفع ثمنه غالياً، وقبل أن يكون ثمن اقتحـام كريـات شمونا، مثلاً، مسح نصف مخيم النبطية، حسب المعادلة العسكرية الفلسـطينية ـ الاسرائيلية. لكن شعر هذا الشعب أيضاً، بعد مرور السنوات، بأن هناك تضحيات كان من الممكن تجنبها أو تخفيضها (ولو بواسطة بناء ملاجئ أفضل!) وبأنه كان من الممكن تحقيق مردود أكبر لحجم تلك التضحيات.

يجب على كل من يقترح تبني استراتيجية فلسطينية تشمل العمل المسلح أو تؤدي إلى سفك الدماء (أفلسطينية كانت أم غير فلسطينية، لا فرق) أن يتأكد أولاً من استنفاد كافة السبـل الاخرى قبل أن يلجأ الى الوسيلة العسكرية كشكل نضالي. يجب لذلك أن يحدد الهدف المنشود بوضوح لأن ذلك، وحده، يسمح بتحديد الوسيلة المناسبة بوضوح أكبر تأميناً لمبدأ تطابق الوسائل مع الغايات، والا ينشأ وضع يتم فيه استخدام أساليب غير مناسبة تؤدي إلى خسائر وعذاب بلا داع وبلا طائل. ويجب التذكر أن مئات وآلاف الرجال والنساء والاطفال سيدفعون ثمن كل استراتيجية. ومهما كانت النيات، إلا أنه لا يحق لأحد أن يأتي بالموت لغيره لأنه مُهمِل وغير مستعد لاجهاد نفسه قليلاً لتقدير الموقف بدقة وتقييم التجارب للتعلم من دروسها وتغيير أساليبه عند الضرورة. فهل انه لا يأبه لعواقب أعماله؟